النشاط التجارى بالسلط فى القرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية

د٠ عبد الحليم على أبو هيكل(*)

شهدت المنطقة الواقعة شرقى الأردن مع بداية القرن التاسع عشر نشاطا اقتصاديا ملحوظاً خاصةفى المجال الزراعى والتجارى لأسباب متعددة، منها ما ارتبط بأزدياد نشاط التجارة العالمية فى تلك الحقبة ، وجهود الدولة العثمانية فى اصلاح بنيانها خاصة الجانب الاقتصادى منه ، الأمر الذى يتمثل فى صدور قانون الأراضى العثمانية عام ١٨٥٨م ، وما ترتب على ذلك من ضرورة احكام القبضة على الولايات التابعة لها ، وذلك

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ٠

(١) جاء ذكر هذه المدينة فى المصادر العربية مرسوما على النحو التالى :

«الصلت» بفتح الصاد وسكون اللام ، « بلدة وقلعة من جند الاردن وهى فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون على مرحلة منها ، وهى تقابل أريحـــا ، مشرفة على الغور ٠ وينبع من تحت قلعة « الصلت » عين كبيرة ويجرى ماؤها ويدخل فى بلدة الصلت ٠ «والصلت» بساتين كثيرة ، وحب الرمان المجلوب منها مشهور فى البلاد ، وهى بلد عامر ، أهل بالناس » ٠

أنظر أبو الفدا : تقويم البلدان ، طبعـــة باريس ١٨٤٠م ، صص ٢٤٤/٢٤٥ كما ورد ذكرها بنفس الرسم عند المؤرخين المعاصرين مثل ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حـ١٠ ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، ص ٥٤٣ ٠

كذلك المقريزى : كتاب السلوك ، حـ١ ، ص ١٠٩ ، ٢٣٥ ، ٣١٨ ٠

أما المحدثون من المؤرخين والجغرافيين فى عصرنا الحديث فقد استخدموا مصطلح « السلط » بفتح السين وسكون اللام والطاء ٠ أنظر على سبيل المثال ما صدر عن أهل المنطقة مثل كتاب أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين تأليف ٠د حسن عبد القـــادر ، قسطندى نقولا أبو حمود ، عادل شحاده كموشة ، محمـــد محمود السريانى ، عمان ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ وغيرها ٠

وما ورد فى كتاب سليمان موسى : الحركة العـــربية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٦٧٢ والمصادر والمراجع عن أهل المنطقة التى وردت بالبحث ٠ وقد أثرنا استخدام هـــذه الصورة الشائعة الاستعمال فى المراجع الحديثة ٠

(مجلة المؤرخ العربى)

باتخاذ اجراءات أمنية وادارية متتالية(٢) ٠ وكان أن شهد النصف الثانى من ذلك القرن صدور سلسلة من القـــرارات التنظيمية المتعاقبة الخاصة بالولايات،كان منها نصيب الجزء الجنوبى انشرقى من بلاد الشام كبيرا، اذ استمر هذا الاقليم بما فيه بلدة « السلط » تابعاً للواء دمشق حتى عام ١٨٦١م عندما لحق بلواء حوران ومعه (عجلون وقضاء الكرك) ٠

على أن هذا التنظيم لم يســـتمر طويلا ، ففى عام ١٨٦٨م ألحقت (السلط) ومعها (الـكرك) ، و (الطفيلة) بلواء (البلقاء) ، وفى عام ١٨٧٩م ضم (قضاء معان والكرك) للواء نابلس ٠ أما (قضاء السلط) الذى ألحقت به (عمان) فقد استمر تابعاً للبلقاء حتى عام ١٨٨٨م حيث انتقلت تبعيته الى (لواء حوران) ثم كانت الخطوة الأخيرة فى هـذه الحركة الادارية عام ١٨٩٣م بتشكيل (لواء معان) الذى شمل (الكرك والسلط مع معان)(٣) ٠

نلاحظ ان هذا التغيير السريع فى التقســـيم الادارى لم ينبع من فراغ وانما كمنت وراءه ـ بالاضافة الى الهـدف الرئيسى وهو النهـــوض بالدولة العثمانية(٤) ـ عوامل رئيسية جغرافية واقتصادية على النحو التـــالى :

فمن الناحية الجغرافية يمثل هذا الاقليم امتداداً صحراوياً مترامياً ، حافلا بصعاب واضحة فى التضاريس والبنية البشرية مما جعـــل الدولة عاجزة عن ضبط الاشراف عليه اجتماعيا واقتصادياً ٠ وهكذا غدا هـذا

---

(٢) شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصـــيب ١٨٠٠/١٩١٤م ٠ ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣) أنظر تفاصيل هذا التقسيم الادارى لبلاد الشام فى :

أ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى لسورية فى العهـــد العثمانى (حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، مايو ١٩٥١ ٠

وكذلك ب ـ عبد العزيز محمـــد عوض : الادارة العثمانية فى ولاية ســـورية ١٨٦٤/١٩١٤م القاهرة ١٩٦٩ ، صص ٦١/٧٩ ٠

(٤) بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ومراجعة د٠ منذر جابر ، ط١ ، بيروت ١٩٨٨ ، صص ٢٣٢/٣٢٣ ٠

الجزء من شرقى الأردن يمثـــل نقطة ضعف وسط عـــد من الولايات العثمانية منها بلاد الشـام التى تتصف بالنشاط والحيوية ووفرة الامكانات الاقتصادية ، والحجاز بمركزه الدينى، والعراق بموقعه الجغرافى الغنى، وفلسطين بموقعها الذى جعل منها حلقة ربط بين الشام ومصر(٥) .

أما العامل الاقتصادى فقد تمخض عنه العامل الأول عندما هيمنت قبائل البـــدو على ذلك الاقليم وفرضت نفوذها على القوافل التجـارية المتنقلة بين الكيانات السابقة بتحصيل (رســـوم العبور) أو (الاتاوة) مقابل التأمين ، كما كان يحدث بالنسبة لقوافل الحج أيضا .

وقد نظرت الدولة الى التجمعات البشرية المنتشرة فى ذلك الاقليم من بلاد الشام على أنها مجتمعات طفيلية لا أكثر تعتمد فى وجودها على ذلك التوافق بين المتطلبات الاقتصادية لأهل البادية من ناحية وبين طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لانصاف المزارعين على ضفات نهر الاردن من ناحية أخرى(٦) . أما وقد أضحت الرغبة ملحة فى توفير مزيد من الأموال لدفع عجلة الاصلاح الشـامل للدولة الى الامام فقد بات ضرورياً احكام الاشراف على هذه المواقع الهشة(٧) ، لاسيما أن هـــذه المنطقة احتوت على امكانات زراعية واضحة جعلتها مؤهـــلة لانتاج الكثير من المحصولات ، فضلا عن وفرة بعض المعادن(٨) .

وكان المزارعون وخاصة فى اقليم السلط قد أقاموا عدداً من الأسواق البدائية التى اعتمدت أساسا على الانتاج الزراعى . ولما وجدوا أن هذا النشاط التجارى فى حاجة الى قـــدر من الحماية دفعوا الاتاوات لشيوخ

---

(٥) F.O.78/2016, Report from Rogers to Bulwer, 12/2/1861.

(٦) Lamar and Thompson : The Frontier in History, New Haven, N.4.1981, P.7.

(٧) مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، حـ٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ ، صص ٩٩/١٠٤ .

(٨) F.O.78/1118, From Wood to Clarendon, Damascus, 12/2/1855.

نقلا عن شارل عيسوى: التاريخ الاقتصادى ـ المصدرالسابق ، صص٤٥٢ـ٤٥٣.

القبائل لتوفير هذه الحماية . وهكذا أستفاد شيوخ البدو من هذا النشاط مما أدى الى قدر من الترابط بينهم وبين المزارعين المستقرين . وبالرغم من ندرة التزاوج بين القبائل والقرويين نتيجة لتباين التقاليد المتبعة فى هذا الشأن ، الا أن كثيراً من الروابط الاجتماعية الأخـــرى ربطت بين الطرفين ، وبخاصة فى مناسبات الأفراح والأحزان والأزياء وكرم الضيافة؛ حتى أن كثيراً من الرحالة الغربيين فى الربع الأول من القـــرن التاسع عشر لم يتمكنوا من التمييز بين تصرفات المزارعين القرويين وحياة البدو فى تلك المنطقة(٩) .

ومع التوجهات الاصلاحية للدولة العثمانية صـــار من الصعب أن تستمر تلك الأوضاع على هذا النمط ، وخاصة بعـــد السماح للكثير من الجراكسة والتركمان الذين استقدمتهم الادارة ، بتملك اقطاعات واسعة من الأراضى منذ عام١٨٥١م فى اربد والسلط عام ١٨٧٦م والكرك ومعان.

وفيما يلى بيان بمساحة هذه الأراضى وتوزيعها ذلك عام ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ(١٠) :

المنطقة	المساحة بالدونم للجراكسةوالتركمان
اربد	٢٨٥٠ دونم
السلط	٣٠٣١ دونم
الـكرك	١١٧٤ دونم

كذلك قدرت بعض المصـــادر عـدد العائلات الجركسية فى ولايات

---

(٩) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922, P.351 وكذلك :
Buckingham (J.S.) Travels Among The Arab Tribes- London 1925, P.50.

(١٠) أرشيف استانبول ، مجلس والا ، وثيقة رقم ١٩٧٠٢ فى ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ .

الفدان = ٤ دونم ، أو ١٫٠٣٨ هكتار

الشام بـ ٥٥٤٠ عائلة تركزوا فى القنيطرة وعمان ، والأخيرة قريبة من السلط(١١) (انظر الخريطة الملحقة) ٠

وكان أن أدى اقطاع الأراضى للجراكسة مع وضعهم الرئيسى كجماعات للحراسة الى استقطاب آلى باتجـــاه الخط المستطيل شرقى نهر الاردن الذى يبدأ من جنوب نهر اليرموك بمنطقة اربد حتى الكرك الى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وفى المنتصف تقريباً (السلط) التى تقع فى الشمال الغربى لمدينة (عمان) حاليا ٠

وجاء هذا التركيز (الزراعى والاجتماعى) مواكبا لما شهدته بلاد الشام من تحول واضح ، وتدنى ملحوظ لمراكزها التجارية،خاصة (حلب) مع شمال البلاد وانتقال الاهتمام الى الجنوب وذلك نتيجة لعاملين :

أولهما : ما أصاب المنطقة الشمالية من الشـام من كوراث متلاحقة خلال القرن التاسع عشر كزلزال عام ١٨٢٢م ، والصراعات الأهلية التى شهدها النصف الأول من القرن حتى عام ١٨٦٠م ، ومذابح الأرمن عام ١٨٩٥م(١٢) ، وما أشارت اليه المصادر البريطانية من تعرض البلاد عام ١٨٨٠م للمجاعة التى أدت الى وفاة المئـــات وما خلفتـه من ســلبيات اجتماعية وركود اقتصادى(١٣) ٠

ثانيهما : مؤثرات حركة التجارة العالمية وركود خطوط المواصلات التجارية عبر شمال الشام وانتقال هذا النشـــاط الى المناطق الجنوبية ، نظراً لانتقال مواقع المنافسة الأوربية من المراكز والمـــدن الايطالية الى الموانىء والطرق البحرية التجارية باتجاه الهند ، مما أدى الى انهيار مركز حلب التجارى منذ بداية القرن ١٨م (١٤) ٠

---

(١١) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٦٢ ٠

(١٢) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٧٢/٧١ ٠

(١٣) F.O. 195/2766, From Henderson to Layard, 22/8/1880

(١٤) د٠ أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاســع عشر) بيروت ١٩٨٤ ، صص ٢٢٨/٢٢٧ ٠

وقد تمخضت تلك التطورات عن تحقيق حـــالة من التوازن بين المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للسكان القدامى (من انصاف مزارعين والبدو) من ناحية والسكان الجدد من (الجراكسة) من ناحية أخرى ، وذلك على النحو التالى :

أولا : زيادة رقعة الاستقرار الاجتماعى المصـــحوب بانتشار الأمن وهو ما كانت تنشده الدولة العثمانية والسكان جميعا على حد ســواء • وأدى هذا التطور الى زيادة حجم النشاط الاقتصادى وخاصة ما يتعلق بكثرة الكم الانتاجى فى المحصولات الزراعية ، الأمر الذى تطلب تحقيق قدر من التكامل والربط بين المواقع الحضرية شرقى وغربى نهر الاردن•

ثانيا : نتج عن هذا التوازن ظهور التحول التدريجى من الاقتصاد الاستهلاكى للبدو وانصاف المزارعين الى الاقتصاد الانتاجى لهم جميعا ، فضلا عن خلق سوق استهلاكى أشبع متطلبات السكان والدولة على حـد سواء فى تحقيق الاستقرار بهذا الأقليم •

وانعكست هذه التطورات بصورة خاصة على موقعين أساسيين ،هما (السلط ءالكرك) ؛ وكانا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر مجرد مواقع تجارية وأسواق استهلاكية بين الامتداد الصحراوى الشمالى لشبه الجزيرة العربية ، والمدن الفلسطينية وشمال الشام ، (السلط مع نابلس، ثم المثلث الذى كانت القدس على رأسه ، وقاعدته السلط والـكرك) • أنظر الخريطة الملحقة •

وعندما زار (بوركهات ـ Burckhardt)) السلط عام ١٨١٢م استطاع احصاء ما يقرب من عشرين حانوتاً تجاريا لمســتلزمات السكان من البدو والقرويين(١٥) • ثم جاءت زيارة (باكنجهام Buckingham) بعد ذلك بأربع سنوات فوصف (السلط) بأنها أضحت مركزا رئيســيا للتجار،وسوقاً يفد اليه كل ذى شأنلقضاء مستلزمات حياته (حيث أضحت من أشهر المراكز التجارية بالمنطقة ويقيم بها أكثر الناس ثراء) وضرب

---

(١٥) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holylands, London, 1822 P.350.

مثلا على ذلك بتاجر يدعى (أيوب) بلغ اجمالى ثروته خمسة آلاف قرشاً أى ما يوازى أكثر من مائتين وخمسين جنيها استرلينا كما ذكر أن هناك أعداد كثيرة من التجار كان متوسط رأسمالهم ما قيمته عشرة جنيهات استرلينية ٠

وبناء على تلك الملاحظات التى أوردها بوركهارت وباكنجهام عن أعداد التجار ورأسمالهم بالسلط نستطيع القول أن قيمة البضائع التجارية التى كان يتم التعامل بها فى الربع الأول من ق ١٩ لم تقل عن (٦٥٠) جنيها استرالينيا ٠

ولم تتوقف مهمة أصحاب المحلات التجارية فى السلط عند كونهم مصبا للحاصلات الواردة من القرى وفائض البدو ثم بيعها لأصحاب الحاجة، بل قام هؤلاء التجار أيضا بما يشبه مهمة (الوكلاء التجاريين) نظير عمولة كانوا يحصلون عليها من تجار المدن الفلسطينية ودمشق وحمص وحلب وحماة،بعدما نقلكثير منهؤلاء التجار أنشطتهم باتجاه ـ الجنوب،عندما تعرضوا للضغوط السابق ذكرها،ونظراً لارتفاعالأسعار فى (السلط) بما لا يقل عن ٥٠٪ عن مثيلاتها فى (دمشق) تبعاً لما رآه بوركهات(١٧)٠وكانت أهم البضائع التى وجد لها سوق رائج هى(الملابس والمفروشات) باعتبارها من الضروريات الأساسية التى كان البدو فى أشد الحاجة اليها ، كما وصف باكنجهام محلات (أيوب) سابق الذكر بأنها أحتوت على الملابس القطنية الواردة من (نابلس) والملابس البدوية بمختلف أنواعها وأشكالها(١٨) والتى كانت ترد خصيصاً لبيعها للقبائل العربية ، كما لاحظ أيضا انتشار الأسلحة والذخائر بشكل واضح فى محلات (السلط) وكان أشهر من مارسها تاجر يدعى (عبيد) ، حاز على ثقة الكثير من السكان فاتخذوه (تاجر جملة) ورئيسا لبقية أسواق المدينة(١٩) ٠

---

(١٦) Buckingham (J.S.), Travels among The Arab Tribes, London, 1925 PP.34/35

(١٧) Burckhardt Op.cit, P.351.

(١٨) Buckingham, pp. 34/35.

(١٩) Buckingham, op.cit, P.15.

وكانت درجة أنسياب البضائع تخضع للكيفية التى يتم بها تنظيم القوافل وحراستها بالقوة المسلحة بواسطة أفراد القبائل التى تمر القافلة عبر موطنها ودروبها الصحراوية خوفا من هجمات اللصوص • وكما يقول باكنجهام (كانت هناك اتصالات قائمة ومستمرة بين المدن على ضفتى نهر الاردن شرقه وغربه ، من القدس الى الناصرة الى نابلس الى السلط وعجلون • ودخلت مع هذه المنظومة القرى المحيطة بتلك البقاع) حيث كانت القوافل الشهرية تمر عبر نابلس ، ويحصل أفراد الحراسة ورجال تأمين العبور على جزء من الارباح مقابل الحماية(٢٠)•كذلك استطاععدد من الرحالة العرب وغير العرب تكوين جمـــاعات من بينهم للدفاع عن أنفسهم خلال هذه الرحلات •

أما الصادرات من السلط الى فلسطين وشمال الشام فقد تولى أمرها التجار والبدو من المـدينة • وكان أبرز تلك الصـــادرات (الســـمن) و (الأخشاب) حيث توفرت كميات ضخمة منها ، كما لاحظ بوركهارت وجود كميات كبيرة من (ريش النعام) التى وجدوا لها ســـوقا رائجة خاصة فى مدينة دمشق(٢١) • كذلك مارس البدو جمع الصمغ واعداده للبيع باعتباره مادة أساسية لدباغة الجلود المنتشرة حينئذ فى (القدس) وبعض (القلويات) من الأعشـــاب الصـــحراوية التى استخدمت كمادة ضرورية لصناعة الصابون الذى اشتهرت به نابلس •

وقدر بوركهارت حجم تجـــارة (السـلط) فى الصمغ بحمولة خمسمائة بعير سنوياً أى ما يقرب منمائتين وخمسين ألف رطل ، تراوح سعرها ما بين ١٥ الى ١٨ قرشا لكل مائة رطل ، أى أن اجمالى تجارته كان حوالى ٢٥٫٠٠٠ قرشاً أو ما يقرب من ١٧٥٠ جنيها استرلينيا(٢٢) •

كذلك حدد المصـدر نفســه حجم المواد المستخرجة من الأعشـــاب والمستخدمة فى صناعة الصابون،والتى كانت تصل الى (نابلس) بحمولة

---

٢٠) Burckhardt, op.cit, P.342.
(٢١) Burckhardt, op.cit, P.351.
(٢٢) Ibid, P.351.

سنوية تقدر بثلاثة آلاف من الابل أو (١٣٦٠٠) رطلا ، قدر ثمنها بحوالى ١٧٠٠ جنيها استرلينيا(٢٣) ٠

وفى خريف كل عام كان المحصول السنوى من عصارة تلك الأعشاب تقدمه القبـــائل البـــدوية الى مختار القـــرية أو للوالى ٠ وكان تجار (نابلس) الذين احتكروا تلك التجارة يتوافدون على السلط لشراء تلك المواد ٠ وتبعا للاعراف القائمة أتخذ هؤلاء التجار لأنفسهم مقاراً خاصة بهم فى المدينة للاقامة أثناء جمعهم لتلك البضاعة ومن ثم ضرورة تحمل اعباء معيشتهم ومعهم رفاقهم ، مما كان يمثل فرصة لأهالى المدينة لتنشيط الحركة التجارية ، فقد كانت أشهر الخريف بمثابة (موسم) يس تفيد منه الأهالى كثيرا(٢٤) ٠

ومما ساعد أيضا على ازدياد الحـــركة التجارية بالسلط ، ما كان يحصل عليه شيوخ القبائل من (خوة) تدفعها القوافل التجارية المـارة بموطنهم٠وكانت تتراوح بين (عشرة وخمسة قروش) تبعا للمسافة التى تعبرها القافلة،كما كان شيخ القبيلة يحصل أيضا على (قرشين) مقابل الامداد بالمياه ومثلهما للخدمات الاضافية المقدمة لرجال القافلة كالحراسة والراحة مثلا ٠ وبذلك اذا كان عدد الابل المحملة بالقافلة (٢٠٠٠) فان على القافلة دفع (رسوم للقبائل) مقدارها (٣٠٫٠٠٠) قرش أو ١٥٠٠ جنيها استرلينيا ، مما حتم على التجار اضـافة تلك الرســـوم الى ثمن السلعة الأساسى ٠ على أنه من الأمور الجديرة بالتسجيل أن تجار السلط كانوا يقومون بدفع تلك (الجباية) على قوافلهم الى شيوخ القبائل ، فى حين رفضوا دفع أية مستحقات للسلطة العثمانية ٠

وفى اتجاه آخر اتسمت معدلات تدفق القوافل من شتى أنحاء بلاد الشام بالثبات وبخاصة من دمشق وفلسطين على قضاء السلط،وذلك عندما أخذت الأوضاع تتخذ فيها شكلا أكثر استقرارا٠وكان ذلك فى الوقت الذى استمرت القلاقل تحيط بمنطقة حوران وما حولها نظرا لاضطراب الاوضاع

---

(٢٣) Ibid, P.354.
(٢٤) Burckhardt, op.cit, P.355.

الاجتماعية فى القرى بسبب الندرة السكانية وكثافة الضغط القبلى وما سببه كل ذلك من خلل فى الجزء الشمالى من بلاد الشام • وقد أفاضت المصادر والمراجع فى ذكر تلك الأوضاع والتعـــرض لها(٢٥) ، حيث لم يتحقق لها الاستقرار النسبى الا فى مواسم مرور قوافل الحج السنوية • وتهافت البدو لتحصيل (الخوة) ولو بالقوة خاصة عند مزيريب التى يلتقى عندها كثير من الدروب والطرق الصحراوية(٢٦) • ومن خلال هذا التباين فى الأوضاع نشطت (السلط) تجاريا ، وأمتدت تطلعات تجارها الى توثيق علاقتهم بالقبائل البدوية المجاورة حماية لأنفســـهم وأموالهم وبضائعهم • ومع امتداد نفوذ السلطة العثمانية على تلك القبائل مع بداية عام ١٨٦٧م ، أخذ الحرفيون والبائعون يقدمون دون خشية على عرض بضائعهم ومحصولاتهم بشكل مباشر على البدو • ويحكى أحد أفراد الارسالية البروتستانتية فى السلط عن تلك الظاهرة فيقول : (خلال تفقدى للأســواق المجــاورة لمـــدينة السلط عام ١٨٧٠م رغبة فى الحصول على بعض مستلزماتى المنـــزلية من الاوانى والمأكولات نظــرا لانخفاض أسعار تلك الأسواق البدوية عن مثيلاتها داخل المدينة ، شـــد انتباهى الكثير من الباعة الجائلين الوافدين من بيروت،والصاغة الوافدين من حلب والناصرة ودمشق،وهم يجادلون البدو داخل خيامهم حول أسعار مالديهم من بضائع اشتملت على الأقمشة وبعض الحلى والأوانى المنزلية، مما جعلنى استغرق وقتاً طويلا ومسافة أطول لامتداد القبائل ومواطنها الضاربة شرقى مدينة السلط لمسافة زادت على خمسة كيلومترات) • وقد حدث ذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر سواء باصدار قوانين تنظيم الطرق المعابر أو تحــديد جـــزء من الموارد المالية للدولة يخصص للحماية والصيانة(٢٨) •

---

(٢٥) انظر فى ذلك مثلا : ملحم خليل عبده وأندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨ •

وكذلك : Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria, London, 1969.

(٢٦) Hill (Gray), A Journey of Petra, 1896, London 1897.

(٢٧) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident), Report from F.A.Klein, Salt, October 1871.

(٢٨) على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق٣٤٢هـ ،ص‌ص٢٤٣/٢٤٤•

وقد أستثمر التجار الجدد القادمون من أنحاء الشام باتجاه السلط هذه التوجهات من قبل الدولة العثمانية وقاموا بافتتاح عدد من المحلات التجارية على جانبى تلك الطرق فى القـــرى المطـــلة عليها وأوردت المصادر بيانا بالاعداد التقريبية لتلك المحلات على النحو التالى :

الطريق من السلط ـ مويلح ـ الزرقاء	٣٥ محلا
من السلط ـ عمان	٢٧ محلا
من القصر ـ الكرك	١٨ محلا
من الكرك ـ الطفيلة	٢٢ محلا(٢٩)

وكانت مقدمات هذا الاستقرار التجارى والأمنى عاملا مشجعا لمزيد من التجار للقدوم الى (الســـلط) وبالتالى ازدياد الاعـــداد الســنوية والشهرية للقوافل التجارية القادمة من المدن الفلسطينية وشمال الشـــام بصورة ملحوظة ، حيث بلغت أعدادها وزيادتها على النحو التالى(٣٠):

العـــام	عدد دواب القافلة فى العام
١٨٦٠	٢٦٩٥
١٨٦٢	٢٨٠٢
١٨٦٤	٣٠٠٠
١٨٦٦	٣٠٥٠
١٨٦٨	٢٩٦٠
١٨٧٠	٣٢١٥

ومع ازدياد عدد القوافل القادمة الى السلط ، بدأ صغار التجار الذين توافدوا على المنطقة قبيل التركيز العثمانى بالدخول ضـــمن فئة كبار التجار الذين ازدادت أعدادهم بالضرورة ، واتسعت حلقة النشاط التجارى

---

(٢٩) F.O.406/26, Letter from Col. Burnaby to Russel 16/1/1861

(٣٠) P. M. R./O/72/266, Annual Report from Protestant Missionaries Resident in Salt, October1871.

وغدت أكثر قوة فى أواخر عام ١٨٧٠م ٠ وقد قدر عدد التجار الذين ارتفع رأس مالهم عن ٣٥٠ر٠٠٠ قرشا بخمسة وثلاثين تاجرا عام ١٨٥١م ، ثم ارتفع هذا العدد الى ما يزيد على أربعة وثمانين فى عام ١٨٧٠م، وهؤلاء اتخذوا من المدينة مركزاً لتجميع البضائع وتوزيعها على القرى والقبائل البدوية المحيطة(٣١) ٠ ومع نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر بدأ سكان السلط يستشعرون مدى ما يتمتع به تجار (فلسطين) و (الشـام) القادمون عليهم من استقرار وأمن على بضائعهم وأرواحهم ، وكيف انهم فى وضعهم المالى غدوا أفضل بكثير مما كان عليه سكان المدينة الأصليين وتجارها(٣٢) ٠

وكان من الصعب على هؤلاء التجار الكبار الاعتماد فى حماية أنفسهم وتجارتهم على البدو على نحو ما كان عليه الوضع عند بداية قدومهم أول مرة ، أو الركون فقط الى تبـادل المنفعة بينهم وبين أنصـاف المزارعين باعتبارهم شريان الامداد الرئيسى للتجارة(٣٣) ٠ كذلك لم تكن هناك امكانية تحول هؤلاء التجار الذين انتشروا فى اقليم البلقاء عامة والسلط بصفة خاصة الى ممارسة الزراعة مع القصور فى عناصر قيامها (ندرة الأمطار) و (قلة خصوبة التربة) ٠ مما حتم ضرورة الاسـتمرار فى النشاط التجارى فى ظل الأوضاع الجديدة التى فرضتها السلطة العثمانية. وكان أن ازداد النشاط التجارى سواء داخل بلاد الشام نفسها ، أو بين الأخيرة وأوربا منذ أواخر عام ١٨٥٦م ، وصارت (السلط) مركزاً رئيساً من مراكز التوجه التجارى نحو تلك البقاع(٣٤)، وكان التركيز فى بداية الأمر على هذا النشاط التجارى (المحدود) دون سـواه ، والبعد عن الانغماس فى مجال الاستثمارات الأخرى داخل المنطقة ٠

ومما شجع أيضا على هذا الاتجاه ذلك التدفق المتزايد فى أعـداد الوافدين الى (السلط) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر من

---

(٣١) Ibid

(٣٢) C.M.S./O/36/11/ , From Khalil AL Jamal, 29/11/1879.

(٣٣) Schileher (Linda), The Huran Conflicts of The 1860, London, 1881, P.174.

(٣٤) Ibid

دمشق وبغداد والقدس بهدف التجارة أو لتأدية فريضة الحج • واتخـــذ الوافدون من المدينة نقطة (التقاء) سواء للراحة أو المتاجرة بما معهم من بضائع • وأوردت المصادر بيانا تقريبيا عن تلك الاعداد العابرة خلال الخمس سنوات الأولى من العقد التاسع للقرن التاسع عشر على النحو التـالى(٣٥) :

العـام	أعداد الوفود من دمشق	من فلسطين (يافا/نابلس)	بغداد
١٨٩٢	٣٢٣٠	٢٨١٥	٢٠٥٥
١٨٩٣	٣٥٥٠	٣٣٧٠	٢٨٠٠
١٨٩٤	٤٢٠٠	٣٦٠٠	٤١٠٠
١٨٩٥	٥١٠٠	٤١٥٠	٤٥٥٦

ولا شك فى أن الحبوب كانت تأتى على رأس قائمة السلع المتداولة، وحقق كبار التجار من المتاجرة فيها أرباحاً طائلة ، فكان سعر المكيال من القمح فى السلط (قرشين) فى عام ١٨٦٠م ، ثم وصل الى قرشين ونصف القرش فى نوفمبر ١٨٦٩م • وفى موسم الجفاف قفز سعر القمح ووصل الى ذروته فبلغ أربعة عشـــر قرشـا(٣٦) • وفى ذلك الوقت كان اقليم (حوران) فى مركز متقدم لبلاد الشام فى انتاج الحبوب وسرعان مالحقت به السلط بعد عام ١٨٨٨م • وأوردت بعض المصادر بيانا عن مقدار انتاج بعض أقاليم الشام على النحو التالى(٣٧):

---

(٣٥) N.A. 890/31, Report From U.S. Consulate Jerusalem, Syria, to Tomas Cridler, Washington, August 1900.

(٣٦) L.P.J. (Latin Patriarchate of Jerusalem), MeM. of Jean Morétain, 1869, PP.466/492

(٣٧) F.O.195/2097, From Richards to O'Conor, 3/10/1901

نقلا عن شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى ، ص ٤٦٥

الاقليم	عدد السكان	المساحة المنزرعة	القمح	الشعير
حوران	٥٣ر٥٤٠	٢٩٧ر١٧٥	١ر٠٦٣ر٧٤١	٤٤٧ر٧٠٨
جبل الدروز	٣٣ر٠٩٠	٢٤٥ر١٤٠	٧٩١ر٧٠٠	٤١٦ر٩٦٧
عجلون	٣٠ر٠٠٠	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٦٨٠ر٠٠٠	٦٢٠ر٠٠٠

ولكثرة انتاج (حوران) من الحبوب اضطر مزارعو الاقليم الى دفع نصف الحمولة الى المكارى ـ صاحب الجمل ـ نظير نقله الى عكا(٣٨) ، التى نشطت تجاريا بسبب تدفق كميات الحبوب من حوران عليها ، والى (ميناء حيفا) حيث أكد مشاقة (أن الأكثرية من حبوب حوران تتجه نحو حيفا)(٣٩) ٠ وأوضح تقرير آخر لنفس المصدر عام ١٨٩٩م أن ما مجموعه (٢ر٠٥٢ر٠٠٠) كيلة من مجموع انتاج حوران من الحبوب البالغ كميته (٥ر٩٢٠ر٢٥٠) كيلة كان يأتى من (عجلون)(٤٠) ٠

واذا كانت (حوران) قد تفوقت فى انتاجها من الحبوب وتصديرها الى الخارج أو ارسالها الى بلاد الشام الشمالية ، فان السلط ومعها الكرك ومعان قد تنوع انتاجها الزراعى بصورة ملحوظة عن غيرها من المناطق، مما ساهم فى ازدياد نشاطها التجارى ؛ فكان انتاجها على النحو التالى :

---

(٣٨) عيسوى : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ ٠

(٣٩) N.A.890/O, Record Book, Damascus, Vol.I (1900/1908) PP.269/270.

(٤٠) N.A.890/15, Report on The Trade of Damascus 16/9/1900

المحصول	الكمية	
القمح	٢٠٠ر٠٠٠	طن
الشعير	٥٦ر٠٠٠	طن
الذرة	٧٥ر٠٠٠	طن
السمسم	٢٠٠ر٠٠٠	كيلوجرام
الصمغ العربى	٢٠ر٠٠٠	»
البطيخ	٥ر٠٤٠ر٠٠٠	بالعدد
العنب	١ر٠٠٠ر٠٠٠	بالكيلو
الفاكهة عامة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	بالكيلو
اعلاف حيوانية	١ر٥١٠ر٠٠٠	»
خضروات	٥٠٠ر٠٠٠	»
أخشاب	٥٠ر٠٠٠	»
بقول	١ر٦١٣ر٠٠٠	»
تبغ	٢١ر٥٠٠	»
العدس	٤٢٠ر٠٠٠	»
زيت الزيتون	١٠ر٠٠٠	كيلو
زيتون	١٥ر٠٠٠	»
قطن خام	١٤٠ر٠٠٠	»
صوف	١٠ر٠٠٠	»
عسل وشمع	٧ر٠٠٠	»
محصولات أخرى متنوعة	١٠ر٠٠٠	(٤١)

يتضح من هذا الجدول الذى ورد ضمن أوراق الارسالية أن أرقامه اعتمدت على(التقريب)بما يعنى أنالارقامتقديرية وتعبر عن رؤية خاصة، كما نعتقد أن هناك قصور لحق بتلك القائمة ، مثلما يبدو فيما ورد بها عن كمية انتاج (العنب) الطازج ، وهذا صحيح من حيث وجود زراعة

(٤١) A.C.M.S. (Archives of The Church Missionary society) 41/289/2/93, 12 12 1899.

تلك الفاكهة بالمدينة وما حـــولها ، الا أن البيـــان لم يرد به شيء عن (الزبيب) خاصة وأن (السلط) معروفة بانتاجه وتصنيعه وتصدير كميات ضـــخمة منه الى المدن القريبة وبخاصة (القـــدس ونابلس) ٠ وقد أورد القنصل امريكى بالقدس تأكيداً لذلك عندما ذكر أن كميات الزبيب التى ترد الى المدينة من مناطق انتاجه وتصنيعه فى (السلط) بلغ متوسطها السنوى ٣٨٠طن ٠ أى ما يوازى فى قيمته ١٩ر٠٠٠ دولاراً حسب التقدير الذى أورده عام ١٨٩٧م(٤٢) ٠

كذلك اغفل تقرير الارسالية (القلويات) المستخرجة من الأعشاب حيث ذكر القنصل الأمريكى أن الكميات المصـــدرة من (السلط) الى (نابلس) بغرض صناعة الصابون أو دباغة الجلود ، قد تراوحت سنويا بين (٧٦٠) و (١٢٠٠) كيلو جرام فى عام ١٨٩٥م ٠ ثم تراجع هذا الرقم بعد ذلك ليصـبح المتوسط الســـنوى بين ٥٣٠ و ٨٥٠ كيلوجرام ، نتيجة للاتجاه نحو استخدام الكيماويات الصناعية الأرخص سعرا من قبل معامل الصابون ودباغة الجلود فى القدس ، من خلال التجار الأوربيين المقيمين فى القدس(٤٣) ٠

وعلى الرغم من تلك الملاحظاتالمتعلقة بالأرقام التى أوردتها وثائق الارسالية باعتبارها أرقاماً تقريبية غير محددة تحديدا دقيقا ، مع اغفال بعض المنتجات الرئيسية التى اشـــتهرت بها (السلط) ، الا أن الحقيقة المؤكدة فى ذلك هى أن المدينة وتوابعها خـــلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر أضافت بانتاجها الزراعى ، مع ما كان يقوم به كبار التجار ، دفعة جديدة كثفت من خلاله نشاطها التجارى ، فأكدت المصادر الأمريكية أن ما يقرب من ٦٠٪ من الانتاج الزراعى للسلط كان يعد للتصدير باتجاه البلدان الواقعة غربى نهر الاردن (نابلس ، القدس ، حيفا) والى دمشق وحلب فى شمال الشام ، كما أن ١٥٪ من حجم التجارة كانت ترسل الى اقليم الحجاز ومصر وأوربا(٤٤) ٠

---

(٤٢) N.A. 890/O/17, Report From M.Wallace, Jerusalem 12/1/1898.

(٤٣) N.A.890/O/17, Op.cit.

(٤٤) Ibid—.

وكان طبيعيا مع ازدياد هذا النشاط التجارى وتنوع مصادره ، أن تظهر فئة من كبار الرأسماليين ساهموا بقسط وافر فى اثراء النشاط التجارى من خلال ما كانوا يقدمونه من قروض عينية ومالية للتجار أو المزارعين ٠ وقد بدا واضحا أن أغلبية هؤلاء الرأسماليين كانوا من الوافدين الى السلط من فلسطين ومن نابلس بصفة خاصة ٠ وصاحب عمليات الاقراض ارتباك واضح من خلال الأسلوب الذى كانت تتم به ، عندما تولت (المحكمة الشرعية) بالمدينة أمر تسجيل القروض، وذلك نظرا للتفاوت الزمنى على مدار الأيام بين التوقيت الهجرى والميلادى، وتمسك الأطراف المعنية بما يناسبها من توقيت لنهاية القرض٠ هذا بالاضافة الى أن كثيرا من الشهود الذين كانوا يوقعون على الصكوك المالية وقعوا فريسة للاغراء المالى لصالح أحد الاطراف فغيروا شهاداتهم رغبة أو رهبة ، نظرا لأن الأغلبية الساحقة منهم اتخذت مسألة الشهادة (حرفة للحصول على المال)(٤٥) ٠

ويتضح مما تضمنته سجلات المحكمة الشرعية لمدينة السلط خلال الفترة من عام ١٨٨٥م حتى ١٨٩٠م أن عدد قضايا القروض التى حكم فيها (١٢٤) قضية مالية ، وأن هناك (٦٠) قرضاً قدمت من التجار الفلسطنيين ، (٣٥) قرضا من الدمشقيين كما بلغ عدد الذين حصلوا على قروض من مدينة السلط فى ذات الفترة (١١١) مواطناً(٤٦) ٠

ومع استمرار حلقة القروض المالية والعينية ، أضحت عناصر القوة لمدينة السلط بأيدى كبار الرأسماليين الذين وردت اسماؤهم فى سجلات المحكمة الشرعية للمدينة ، ومن أبرز تلك الأسماء (عبد الرازق طوقان وداود أفندى طوقان وعبد الرحمن بك طوقان) وهم جميعا كما هو واضح من أسرة واحدة ، ارتبطت أصولهم ونشأتهم بمدينة (نابلس) لكنهم هاجروا وأقاموا بالسلط خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

---

(٤٥) N.A.890/O/21,Report on The Trade of Jerusalem, 1/2/1900

(٤٦) المحكمة الشرعية بالسلط مجلد رقم ٢ ، ص ١١ ، والصورة لتلك السجلات، موجودة بمكتبة الكونجرس الامريكى (القسم القانونى) تحت مسمى (محاكم شرعية ـ الشام) ٠

وغطت قائمة القروض التى مارسوها ثمان صفحات فى سجلات المحكمة الشرعية ، وبلغ عددها (٢٤٣) قرضاً قيمتها (٣٩ر٣٨٣) قرشاً قدمت بشكل نقدى ٠ أما قروضهم العينية فكانت على النحو التالى :

١٣ر٦٣٣ صاعاً من القمح و ٣ر٠٦٢ صاعاً منالشعير و ٢ر٢٢٧ قدراً السمن ٠ كذلك قدرت كمية الحبوب الموجودة بمخازنهم فى ذات المدينة بـ (٦٠٠٠) صاعاً من القمح و (٨٠٠) من الشعير(٤٧) ٠

وبالاضافة الى آل طوقان ، برز أيضـــا اسم (الحاج عبد القـادر جعبير) ، وتبعا لما جاء فى ذات السجل بلغت قيمة القروض المقدمة منه (١٢٠ر٠٠٠) قرشاً ، وعينيا (١٥ر٠٠٠) صاعاً من القمـــح ، وحوت مخازنه (٧٠٠٠) صاعاً من القمح ، و (٢٠٠٠) من الشعير ، وقدرت السجلات قيمة ما يمتلكه من بضائع فى المدن الأخرى (دمشق وبيروت) بما قميته (٤٠ر٠٠٠ قرشـــا(٤٨) ٠ وتشـــير الملاحظات التى وردت فى السجلات المتعلقة بهذا الاسم الى أنه كان من الرجال الذين مارسوا عددا من الأنشطة الاقتصادية المتنوعة ٠ فبالاضافة الى ممارسة عمليات اقراض الأموال وتجارة الغـــلال واعدادها للتصـــدير ، فقد كان نشطا أيضا فى استيراد البضائع الســـورية واعـــدادها بالسلط من أجـــل الاستهلاك المحلى بها(٤٩) ٠

هذا بالاضافة الى وجـــود (كثرة) من أمثال هؤلاء الرأسماليين بالسلط بلغت قيمة رؤوس أموالهم فى عام ١٨٩٥ مبلغا قدره (٦٥ر٠٠٠) قرشا(٥٠) ، وعلى جانب آخر شجع نمو رأس المال بالسلط أعدادا أخرى من مدن فلسطين ودمشق للقدوم الى السلط وأتجه نشاطهم بصفة خاصة

---

(٤٧) سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعـــوام (١٣١٥/١٣١٩هـ) ، صص ١٧٨/١٦٩ ، ٢ رمضان ١٣١٨هـ ، ٢٥ ديسمبر ١٩٠٠م ٠

(٤٨) نفس المصدر ٠

(٤٩) نفس المصدر ٠

(٥٠) سجلات المحكمة الشرعية بالسلط : المصدر السابق ٠

N.A.890/29, M.Wallace; Commercial Report for 1895,

نحو الاستثمار الزراعى وامتـــلاك الأراضى حتى عام ١٨٩٥م ، وفقـــا للجدول التالى(٥١) :

العدد	رأس المال	متوسط الملكية بالدونم
١١	٣٥٠ر٠٠٠ قرش	١٥٥ دونم
١٧	٢٨٠ر٠٠٠ »	١١٠ »
١٣	١٩٠ر٠٠٠ »	٩٥ »
٢٣	١٣٠ ر٠٠٠ »	٧٠ »

وكان الهدف من مجىء هؤلاء التجار الى السلط هو جمع أكـــبر قدر من الثروة والسيطرة على مركز رأس المال من خلال العمل كصيارفة فى أول الأمر ، ثم ممارسة تجارة الحبوب التى تشتهر بها المنطقة ، الى جانب مباشرة عملية الاستيراد والتصدير ، واستطاعوا بمثل هذه السبل أن يصبحوا من كبار ملاك الأراض ليس فقط حـــول منطقة السلط بل تجـــاوزوها الى معظم أجـــزاء المنطقة الجنـــوبية الشرقية من بلاد الشام(٥٢) ، وما ان اقترب القرن التاسع عشر من نهايته حتى أضحى هؤلاء الرأسماليين (أمراء) خاصة من قدم منهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث أقترنت اسماؤهم بألقاب مميزة فى سجلات المحكمة الشرعية بالسلط فلقبوا بذوى المقام العالى والقدر الكبير،وألقاب أخرى تبدو فى النص التالى : ـ

(الكبير ، ذائع الصيت ، الموثوق فى أمانته السيد غايد أفندى ابن المرحوم الرئيس الأمين عالى المقام والقـــدر التاجر السيد حسن أفندى النابلسى)(٥٣) .

---

(٥١) Jerusalem, 30/6/1896.

(٥٢) نفس المصدر ، والفدان = ٤ دونم .

(٥٣) المحكمة الشرعية للسلط ، سجل رقم ٤ ، ٢٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ / ١ يونية ١٠١٠ .

وكان أن أضحى لتلك الفئة الجديدة سمة مميزة لحياتهم الاجتماعية فاتخذوا لاقامتهم القصـــور الفخمـــة التى استحضروا لبنائها عمالا من فلسطين ، وذلك وفق طابع من البناء مميز بعيد عن الطراز (الصحراوى) الغالب على بيوت السلط ٠ واتسمت مبانى هـــؤلاء الأغنيـاء بالفخامة والســـعة ومظاهر الثراء ، وجرى بناؤها بأدوات فنية مســـتوردة من الخارج كما زينت بالفسيفساء على غـــرار ما تميزت به منشآت المـــدن التاريخية القديمة(٥٤) ٠

على أنه من الملاحظ أيضا أن تلك القصـــور لم تكن مجرد مبـان للاقامة فقط ، انما ألحقت بها مخازن لحفظ البضائع ، وأخرى حولها اتخذت مقراً للبيع ، وبجـــوارها مكاتب لمباشرة النشـــاط الاقتصادى والأمور الادارية وللاشراف على الأرض والعمـــال بها(٥٥) ٠ وخلصت المصادر فى هذا الى أن العدد التقريبى للتجـــار فى السلط بلغ ثمانمائة تاجراً فى حين بلغ سكان المـــدينة وما حـــولها ٤٢٠٠ نســمة أى بنسبة ١ : ٥(٥٦) ٠ على أن تلك الأرقام لاعـــداد التجار عامة والتى أوردتها المصادر الأمريكية،لم تتوقف عند أعداد (كبار التجار) كما هو ملاحظ، وانما كانت الغالبية العظمى من تلك الاعداد مجـــرد (تجار وسطاء) أتخذوا من أعمال (السمسرة) و (تجارة الجملة) و (مباشرة أعمال الصيرفة) حرفة لهم ، وهم فى هذا حلقة وصل بين الفئات العليا والدنيا، لكنهم ابتعدوا فى كثيرا من الأحيان عن الاقامةالى جوار كبار الرأسماليين، (أمـــلا فى جمع أكبر عـــدد من الاتباع حتى يتمكنوا من جمع عناصر القوة)(٥٧) التى تدفع بهم الى فئة الرأسماليين ٠ ومع ذلك فان هؤلاء (الوسطاء) كانوا فى نهاية الأمر بالنسبة لسكان المدينة والحضر من حولها معدودين من التجار (وأصحاب الأموال)(٥٨) ٠

---

(٥٤) N.A.890/O/15, From Wallace, Jerusalem, 14/11/1908.

(٥٥) N.A.890.3, From Selah Merrill, Annual Report on Affaires in Palestine, Jerusalem, 1893.

(٥٦) Ibid .

(٥٧) Ibid.

(٥٨) N.A.890.3, Op.cit.

وعلى جانب آخر فى التطور الاجتماعى للسلط وبشكل ملفت للنظر فقد تمكن تيار التدفق التجارى من سحب البساط من تحت أقدام المجتمع التقليدى (التداخل الزراعى البدوى) القائم منذ زمن بعيد حتى منتصف القرن التاسع عشر ليتجه بسرعة بعد ذلك نحو (مجتمع زراعى تجارى) بكل سماته وعلاقاته الانتاجية ٠

وقد جاء فى تقرير البطريركية البروتستانتية أن مجتمع السلط فى أواخر القرن التاسع عشر أنقسم الى قسمين : الأول وهم السكان الأصليون الذين أرتبطت حياتهم وتجزأت بين طبيعة المجتمع الزراعى وقبائل الصحراء وربما خلقته تلك العلاقة من سمات تبادل للمنافع بعيدا عن يد الدولة صاحبة السيادة ٠ والثانى هم الذين قدموا الى المدينة من بلاد الشام وغيرها وانصبت أنشطتهم على التجارة وأقراض الأموال،ثم تحولوا بعد ذلك الى ملاك للأراضى الزراعية أو كوسطاء ٠ وأرتبطت عناصر هذا القسم ارتباطا قويا بالجراكسة اللذين منحتهم الدولة العثمانية أراضى زراعية ارتبطوا بها جميعا (تجارا وملاك) حرصا على استمرار مصالحهم ٠ كما أرتبطت بهذا القسم الثانى أعداد وفيرة من القسم الأول، بعدما وجدوا أن هذا (الارتباط المستقر) جعلهم فى مأمن من تقلب أهواء ونزاعات القبائل التى كانت قائمة قبل ذلك(٥٩) ٠

وفى هذا يقول لورنس (أوليفية) (Lawrence Oliphant) الذى زار السلط عام ١٨٨٠م (ان مناخ الأمن السائد فى الاقليم كان عاملا من عوامل الجذب للاقامة والاستقرار بالمركز - السلط - وأن الوافدين من التجار العرب استطاعوا الحصول على مزيد من الأرباح والأموال من جراء نشاطهم المتزايد فى تجارة المحصولات والمواشى)(٦٠)٠

ولا شك فى أن علاقات الانتاج الجديدة والتطور الاجتماعى وليد النشأة لم يكن ليكتب لهما البقاء بعيدا عن مصلحة الدولة العثمانية التى

---

(٥٩) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident, 15/13 Report from Bellamy, Al Salt; October, 1871.

(٦٠) Oliphant (L.), The Land of Gilead, N.Y.1881, P.181.

استرعى نظرها تطورات النشـــاط الاقتصادى لقضـــاء السلط وامكانية الاستفادة منه ، بما يحقق خططها فى الاصلاح الذى كانت تتطلع اليه ، خاصة بعدما غرست بالمنطقة فئات موالية لها بدءا بالجراكسة ووصـولا الى التجار ليشكلوا خط دفاع بشرى ضد فوضى الضغوط البدوية الملاصقة . واستطاعت الدولة من خلال ذلك تحقيق هدفين أساسيين :

الأول : الهدف الأمنى باستقطاب هذه العناصر البدوية داخل اطار المجتمع الأكثر استقرارا والتخلى عن ممارسـة الاغارة والسلب والنهب . وقد أوردت بعض الوثائق التركية النتائج الايجابية لهذا التطور بانحسار عدد الهجمات من جانب البـــدو على الأراضى الزراعية والقرى فيما بين عام ١٨٧٦م وعام ١٨٩٣م على النحو التالى(٦١) :

العـام	حوادث الاعتداء	
١٨٧٦م	٢١٦	حادثة
١٨٩٣م	٦٧	حادثة فقط

الثانى : وهو الهدف المالى اذ حدث تحسن ملحوظ فى زيادة ايرادات الدولة من ضريبة (ويركو التمتع)(٦٢) وهى الرسوم التى كانت تحصل على النشاط التجارى بصفة خاصة والتى تراوحت نسبتها منـــذ منتصف القر نالتاسع عشر بين ٣٠ و ٥٠ فى الألف قرشا.وقد لوحظ مدى الزيادة المضطردة فى قيمتها على النحو التالى(٦٣) :

---

(٦١) أرشيف استانبول : يلديز سراى ، أوراق رقم ٩٢٧ ، ظـــرف رقم ٦٢ عام ١٣١١هـ .

(٦٢) كلمة تركية بمعنى المال الميرى أو الضريبة الرسمية .

(٦٣) أرشيف استانبول : مالية ، وثيقة رقم ٦٥٢٣٠١ بتاريخ ٧ جمادى الاولى عام ١٣١٠هـ .

العـــام	الايراد من الضريبة بالقروش
١٣٠٥هـ/١٨٨٧م	٢٧٥/٥١٦ قرشاً
١٣٠٦هـ/١٨٨٨م	٢٨٩/٢٠١ »
١٣٠٧هـ/١٨٨٩م	٢٩٥/٨٧٤ »
١٣٠٨هـ/١٨٩٠م	٣٢٧/٦٤٢ »
١٣٠٩هـ/١٨٩١م	٣٤٨/٠٣٢ »

وبهذا النجاح الأمنى والمالى للدولة العثمانية والاستقرار الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، بدأت السلط تأخذ طابعا جديدا فى انماطها المتعددة حتى غـدت فى نهـــاية المطاف نواة للاستقرار والنمو لكثير من البقاع المحيطة بها خاصة (عمان) التى كانت فى وقت من الأوقات مجرد قرية تابعة لقضاء السلط حتى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م(٦٤) ٠

وأغلب الظن من خلال استقراء تلك التطورات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ان قيام امارة شرق الاردن عقب الحـــرب العالمية الأولى لم يأت من فراغ وانما كمنت وراءه الكثير من الأهداف الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ٠ ومن بين هذه الأسباب والأهداف كان موقع السلط وتنامى مركزها مع الرغبة فى احكام القبضة على المنافذ الجنوبية لبلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية لتعويض ما تطلع اليه الطامعون من سيادة على سورية ، وما خسروه فى جبهة (الحجاز) عقب الثورة العربية عام ١٩١٦م ٠

(٦٤ـ عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠

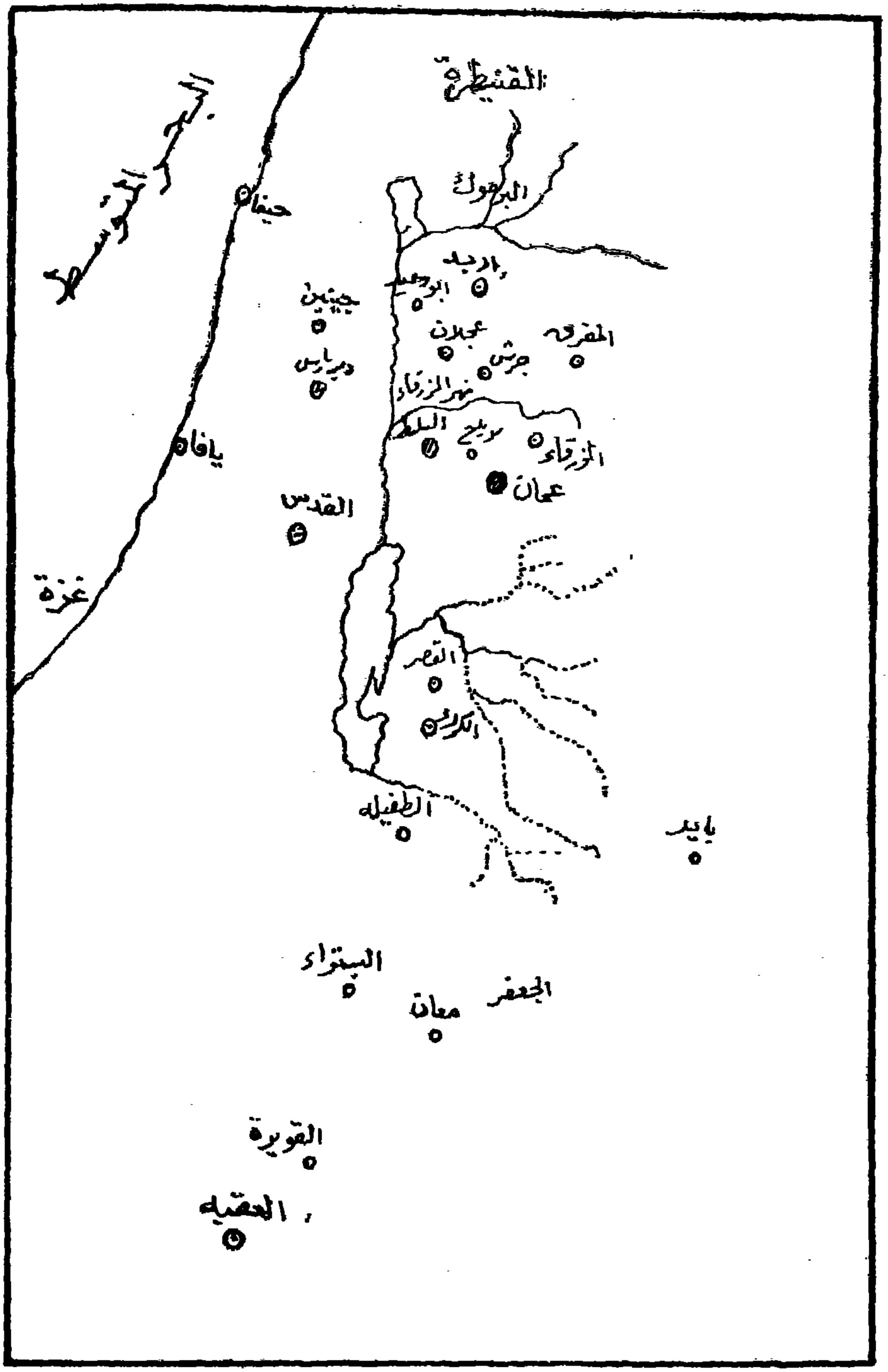

الموقع والخريطة منقولة من كتاب :
(أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين)
اعداد : د. حسن عبد القادر / قسطندى أبو حمود / عادل شحاده ومحمد السريانى ، عمان ١٩٧٣ .

مصـــادر البحث

أولا : وثائق بلغة أجنبية :

(أ) وثائق بريطانية

1. F.O.406/26, 16/1/1861
2. F.Oè1951/2706, 22/8/1890
3. F.O.78/20/6, 12/2/1861

هذا بالاضافة الى الوثائق المنقولة والمترجمة من كتاب :

شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠/١٩١٤ ، ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، بيروت ١٩٩٠ ٠

(ب) وثائق أمريكية : N.A.

1. N.A. 890/3/ , August, 1860
2. N.A. 890/3, 1893
3. N.A. 890/29, 30/6/1896
4. N.A. 890/0/17 12/1/1896
5. N.A. 890/2/ 1/2/1900
6. N.A. 890/15/ 16/9/1900
7. N.A.890/O/ 1900/1908
8. N.A. 890/15 14/11/1908

(حـ) وثائق الارساليات التبشيرية بالقدس والسلط

وأصول تلك الوثائق موجودة فى لنـــدن F.O. وصور منها فى مركز الوثائق القـــومى الأمريكى وتشـــمل (الارســالية البروتستانتية وبطـــريباركية اللاتين ، والكنيســـة الكاثوليـــكية ، وبلغت وثائق تلك الارساليات أربعة عشر مصنفا ، جمعت عى طياتها تقارير عن النشاط الذى كانت تقوم به تعليميا وثقافيا وصحيا فى بلاد الشـــام منذ بداية

القرن التاسع عشر ، بعضها احتوى على أرقام مسلسلة والآخر بدون ، واقتصرت غالبيتها على الفهرسة الزمنية،وما تم الاطلاع عليه فقط ما يلى:

1. Protestant Missionaries Resident : (P.M.R.) P.M.R.6/72/266, October, 1871

2. Latin Patriarchat of Jerusalem, (L.P.J.) 1869

3. Archives of Church Missionary Society (C.M.S.) O13611/O 29/11/1879

   C.M.S. 12/12/1899

ثانيا : سجلات محكمة السلط الشرعية : وصور منها أيضا موجـودة بمكتبة الكونجرس (القسم القانونى) الشام ٠

١ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط ، المجلد رقم ٢ ٠
٢ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣١٥/١٣٢٩م) ٠
٣ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط رقم ٤ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ٠

ثالثا : المصادر التركية :

١ ـ أرشيف استانبول : مجلس والا ، رقم ١٩٧٠٢ ، ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ ٠
٢ ـ أرشيف استانبول: ييلديز سراى، ٩٢٧ ظرف رقم ١٣١١/٦٢هـ٠
٣ ـ أرشيف استانبول : مالية ، رقم ٦٥٢٣٠١ عام ١٣١٠هـ ٠

رابعا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : دراســـات تاريخية فى النهضـة العربية الحديثة (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ط٢ بيروت ١٩٨٤ ٠

٢ ـ بازيلى : سورية ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨م ٠

٣ ـ د٠ حسن عبد القادر وآخرون : اســـماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين ، عمان ١٩٧٣ ٠

٤ ـ شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠هـ/ ١٩١٤م ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ ٠

٥ ـ عبد العزيز محمد عوض : الادارة العمانية فى ولاية ســـورية ١٨٦٤هـ/١٩١٤م ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

٦ ـ على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق ١٣٤٢هـ ٠

٧ ـ ملحم خليل عبده وآندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، ١٩٠٨م ٠

٨ ـ مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشـــير السباعى ، ط٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ ٠

خامسا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Burchardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922
2. Buckingham (J.S.), Travels Among The Arab Tribes, London, 1925
3. Hill (Gray), A Journey of Petra, London 1897
4. Lamar and Thompson, The Frontier in History, New York, 1981
5. Schileher (Linda), The Huran Conflicts of the 1860 London 1881
6. Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria London, 1969

سادسا : حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ما يو ١٩٥١ ٠